ثورة المريدين بغربي الأندلس

(539-541هـ/1144-1146م)

أ.مغنية غرداين، جامعة تلمسان

مقدمة:

لقد توالى على حكم الأندلس منذ الفتح الإسلامي لها العديد من أنظمة الحكم، جميعها إسلامية إلا أنها تختلف باختلاف العصور والمراحل التي مرت بها، إلا أنها من عصر الولاة وإلى غاية عصر ملوك الطوائف، هذا الأخير الذي انقضى بتواجد المرابطين بالأندلس.

لكن النظام المرابطي بالأندلس استطاع أن يضبط أموره لفترة زمنية ويحكم زمام السلطة بيده، مثله مثل غيره من الأنظمة، ثم ينقضي عهد النظام المرابطي بالأندلس نتيجة قيام العديد من الثورات في مختلف أنحاء الأندلس، لكن كان ظهورها وقيامها لأول مرة بغربي الأندلس، نتيجة لانتشار حركة المريدين بالمنطقة، فهل تمكنت هذه الحركة من زعزعت كيان الحكم المرابطي؟ وضمن هذه الإشكالية تنطوي عدة تساؤلات منها ما هي أصول حركة المريدين؟ ومن تزعمها بغربي الأندلس؟ ثم كيف تمكنت من القيام بالثورة ضد المرابطين؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة اتبعنا خطة عمل تضمنت أصول حركة المريدين، ثم قيام ثورة المريدين بغربي الأندلس وقد اعتمدنا على مجموعة من المصادر، من كتب تاريخ المغرب والأندلس منها: كتاب "تاريخ إسبانيا الإسلامية" أو كتاب "أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام" لمؤلفه لسان الدين بن الخطيب(776هـ/1374م)، وهو كتاب جاء مختصرا وشاملا لتاريخ إسبانيا الإسلامية والمسيحية من تحقيق ليفني بورفنسال بيروت 1956، وقد أفادنا هذا الكتاب كثيرا في الجزء الخاص بالأندلس من البحث لما تميز به من الدقة في المعلومات، كون المؤلف استقاها من المخطوطات والوثائق والرسائل الرسمية عن تاريخ المغرب والأندلس، وكتاب "المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين" لمؤلفه عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي، المتوفي أواخر المائة السادسة للهجرة، وقد حققه الهادي التازي، ويستمد أهميته من كون مؤلفه معاصرا للأحداث الموحدية، فهو مفيد لتتبع أحداث الصراع خاصة في

الأندلس، كما ينقل لنا الكتاب بعض الرسائل بين مسلمي الأندلس والخلفاء الموحدين، وبعض القصائد التي ألفت في شأن الموحدين، هذا وقد عاش المؤلف بعض الأحداث المهمة في الدولة الموحدية بالأندلس إضافة إلى مجموعة أخرى من المراجع باللغتين العربية والأجنبية تخص الموضوع، ومن بين الصعوبات التي واجهتنا في هذا البحث هو كثرة المعلومات وصعوبة حصرها وتشابهها، لكن حاولنا قدر المستطاع الإلمام بما هو مجدي ومهم في الموضوع، وحصر المعلومات في قالب تاريخي موضوعي.

أصول حركة المريدين:

انقسم المجتمع الأندلسي في عهد المرابطين إلى قسمين، قسم منغمس في لذة الحياة ولهوها منذ عهد الطوائف، وقسم مال إلى التزهد والتصوف بعيدا على مفاسد المجتمع الأندلسي، ومن هذا القسم نشأت حركة المريدين، وذلك بعد انتشار التصوف في جل المدن الأندلسية[1].

وقد تزعم حركة المريدين في بدايتها بغربي الأندلس أبا محمد عبد الغفور بن إسماعيل بن خلف، والذي كان يقطن بالمنطقة، وقد لازم هذا الأخير ابن برجان[2] وأخذ عنه، وضمت منطقة غربي الأندلس أيضا العديد من زعماء حركة المريدين، كأبي القاسم أحمد بن قيسي[3]، وأبي الوليد بن المنذر، وأبي عبد الله محمد بن سالم، وكانوا إما أصحاب مناصب قضائية أو وظائف مخزنية[4].

هذا وقد كان المريديون فرق مختلفة، إلا أن أغلبهم من أنصار الالتزام بالكتاب والسنة، إلا أن الفرقة المريدية أو فرقة المريدين بغربي الأندلس كانت متطرفة، حيث يذكر ابن الآبار أنهم أكثروا من الاهتمام بكتب التصوف ورسائل إخوان الصفا، وكتب أبي حامد الغزالي[5].

هذا وقد تعرض المريدون إلى مجموعة مطاردات خاصة سنة 529هـ/1134م[6]، وقد توالت بعض الأحداث على الأندلس عامة، ومنطقة غربي الأندلس خاصة، مما جعل حدة الصراع بين فرق المريدين تتضاعف بسبب تورط بعضهم في هذه الأحداث، وقد كانت معظم فرق المريدين تتهم الجناح المتطرف بأنه السبب في مطاردة السلطة المرابطية لهم، فلجأ هذا الأخير –الجناح المتطرف– إلى الدعوة من أجل استعمال القوة وتغيير الحكم[7]، فلجأ إلى القيام بثورة ضد المرابطين، سميت بثورة المريدين، وشملت كل مناطق غربي الأندلس.

قيام ثورة المريدين بغربي الأندلس:

تعتبر ثورات غربي الأندلس أول الثورات على المرابطين وقد تزعمها أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي[8]، وهذا الأخير أصبح في وقت قصير شيخا من شيوخ الصوفية وقد عرف أتباعه في غربي الأندلس باسم المريدين[9]، وانتشرت أفكاره وتزايد أتباعه خاصة بعد تأليفه كتاب "خلع النعلين"[10]، وسميت ثورة ابن قسي وأتباعه باسم ثورة المريدين، فقد أخذ ابن قسي يحرض أتباعه المريدين والناس من حوله بالثورة على المرابطين وقد استجاب له العديد من الناس، وانضم بعض أشياخ الجند والعشائر إلى هذه الثورة، ومن بينهم ابن عنان ومحمد بن عمر ومحمد بن المنذر وعبد الله بن أبي حبيب ومحمد بن يحي الشلطيشي[11]، وهذا الأخير اصطفاه ابن قسي واتخذه كاتبه وكاتم سره؛ ولعل السبب الذي ساعد ابن قسي في قيامه بالثورة واستمالته في وقت قصير قلوب العامة هو إدعاؤه للولاية وتسمية نفسه بالمهدي والإمام، مما جعل المرابطين يحسون بخطر دعوته ويفكرون في القضاء على هذه الثورة قبل انتشارها[12].

وانطلاقا من هذا فإن القوات المرابطية شرعت على الفور في إلقاء القبض على بعض أنصار المريدين وإرسالهم أو نفيهم إن صح التعبير إلى اشبيلية، إلا أن ابن قسي استطاع الفرار إلى حصن ميرتلة[13]، وهناك اختبأ في قرية تسمى بالجوزة واحتمى بأهلها وهم قوم يعرفون ببني السنة، ومن موضعه أمر ابن القابلة أحد أخلص رجاله وأشجع قادته بالاستيلاء على حصن ميرتلة، فسار هذا الأخير ابن القابلة لتنفيذ الأمر تحت قيادته حوالي 70 رجلا واستطاع الاستيلاء على الحصن وكان ذلك بتاريخ 539هـ/1145م.[14]

وقد اعتبر ابن قسي الاستيلاء على الحصن نصرا كبيرا وانطلاقة جديدة لثورته فبعد نزوله في ميرتلة كتب إلى أعيان غربي الأندلس يحثهم على الثورة من جديد، حيث استجاب له كل من سيدراي[15] بن وزير في يابرة[16] ومحمد بن عمر بن منذر في شلب[17] مما أدى إلى قلق المرابطين واستيائهم وحاولوا استعادة الحصن[18] بأي طريقة لكنهم فشلوا واحتاروا في أمرهم، مما جعلهم يفكرون في الانتقام بالاعتداء على الناس وتخريب الأراضي وكان هذا الانتقام في صالح ابن قسي فقرّب الناس منه، حيث تضاعف أنصاره والتف الناس حوله فجعل ابن قسي يقرب الناس منه

بإعطائهم المال من غير عمل ولا خراج وكان أصحابه يقولون للناس: "إن المال يتكون عنده إذا فرغ"[19].

وفي تلك الأثناء سار محمد بن عمر بن المنذر بقواته للقضاء على بقية القوات المرابطية في غربي الأندلس واستطاع الاستيلاء على حصن مرجيق[20] من أعمال شلب، وقد حالفه الحظ وهزم المرابطين شر هزيمة مما جعله يفكر في السير إلى باجة[21]، مستعينا بسيدراي ابن وزير، والذي أمده ببعض القوات التي خشي المرابطون قتالها فطلبوا الأمان من أهل باجة فكان لهم ذلك وكان لابن المنذر دخول باجة والاستيلاء عليها[22].

وبعد ذلك سار كل من ابن الوزير وابن المنذر إلى حصن مريتلة لتقديم الولاء والطاعة لابن قسي الذي عين ابن الوزير على مدينة باجة وما والاها وابن المنذر على مدينة شلب وما والاها، حيث سار كل منهما إلى ولايته، إلا أن ابن المنذر جمع أنصاره وعاد من جديد إلى حصن مريتلة من أجل تجديد الولاء إلى ابن قسي الذي لقبه باسم العزيز بالله ومنحه الإشارة بمواصلة فتح البلاد بعد أن أبدى ابن المنذر استعداده لذلك، وانطلق ابن المنذر على وجه السرعة فهاجم مدينة ولبة[23]، واستولى عليها ثم اتجه للهجوم على مدينة لبلة[24]، واستطاع الاستيلاء عليها هي الأخرى بمساعدة يوسف بن أحمد البطروجي أحد زعماء المريدين[25]، وبعد هذه الانتصارات التي حققها ابن المنذر اشتد طموحه فأراد الاستيلاء على اشبيلية والتي كانت تعتبر آنذاك عاصمة غربي الأندلس؛ لكن فكرته هذه بلغت قائد المرابطين يحي بن غانية الذي أرسل إليه قوة من جيشه لصد هجوم ابن المنذر وكان اللقاء بين القوتين بطريانة[26]، بضواحي اشبيلية وقد هزمت قوة المرابطين ابن المنذر الذي انسحب عائدا إلى لبلة إلا أنه لم يمكث بها طويلا؛ بل بعد يومين سار إلى ولايته شلب وترك بلبلة يوسف بن أحمد البطروجي[27].

وانطلاقا من هزيمة ابن المنذر في محاولة هجومه على اشبيلية فإن يحي ابن غانية فكر بأن يتولى بنفسه عملية القضاء على الثوار المريدين بغربي الأندلس، لكن فكرته باءت بالفشل وذلك أنه خرج في اتجاه لبلة لكنه لم يستطع مهاجمتها لشدة حصانتها فحاصرها طيلة ثلاثة أشهر طيلة فصل الشتاء إن صح التعبير؛ لكنه لم ينل منها بل ترك حصارها بعد أن أدرك أنه أفلت قرطبة[28]، من بين

يديه بعد أن بلغه أن ابن حمدين[29] قام بالثورة على المرابطين في قرطبة مما جعله يتجه إلى إشبيلية والتي ثار أهلها عليه فاضطر إلى الخروج منها[30].

وقد شجعت ثورة ابن حمدين ابن قسي على أن يمد سيطرته على قرطبة خاصة وقد كان له أتباع في شرقها، فأرسل ابن المنذر وابن القابلة للاستيلاء عليها لكنهما فشلا وعادا إليه خائبين؛ ذلك أنه في تلك الأثناء طرد أهل قرطبة ابن حمدين واستدعوا سيف الدولة ابن هود[31] وجعلوا منه أميرا عليهم، وفي تلك الأثناء نشب خلاف بين ابن قسي وقادته فقد خلع ابن الوزير طاعة ابن قسي الذي دخل معه في حرب بقيادة ابن المنذر الذي انهزم وانتهى به الأمر معتقلا في باجة، وأما ابن الوزير فقد سار بقواته باتجاه شلب وميرتلة وتمكن من الاستيلاء عليهما، و لم يكن أمام ابن قسي إلا الفرار حتى لا ينتهي به الأمر أسيرا في يد ابن الوزير فعبر البحر إلى المغرب يطلب النجدة من الموحدين وقد كانت هذه الأحداث في سنة 540هـ/1146م[32].

خاتمة:

ومما سبق ذكره يمكن القول أن سنة 539هـ/1144م تعتبر بداية حركة المردين الدينية والسياسية بزعامة ابن القسي، وكان هدفها هو القضاء على الحكم المرابطي، الذي اعتبره الأندلسيون ثقيلا عليهم من حيث تمسك الحكام المرابطين بالدين والأخلاق ومنع انحلال المجتمع الأندلسي، كما أنه من الطبيعي أن تنعكس أحداث بلاد المغرب على بلاد الأندلس لما كانت تعرفه من حروب وثورات وفتن بسبب ظهور الدعوة الموحدية؛ فمن الطبيعي أن يكون لانعكاس الأحداث ببلاد الأندلس رد فعل عنيف على الحكم المرابطي.

الهوامش

1- عصمت عبد اللطيف دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين- عصر الطوائف الثاني، 510-526هـ/1116-1151م، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988، ص 50.

2- ابن مرجان: هو أبو الحكم عبد السلام بن أبي الرجال، من أهل إشبيلية، كان إمام في علم الكلام، ولغات العرب والأدب، عارفا بالتأويل،أنظر: المرجع نفسه، ص53.

3- ابن قيس: قائد ثورة المريدين وسيأتي التفصيل في شأنه.

4- عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص 54.

5- نفسه، ص 58.

6- نفسه، ص 61.

7- نفسه، ص 65.

8- أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي: هو أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي بن حشي أصله رومي من بادية شلب تولى فيها الإشراف على الأعمال المخزنية ثم مال إلى الزهد فتصدق بجميع ماله واعتنق مذهب الصوفية درسها على يد الشيخ الصوفي أبو العباس بن العريف في ألمرية إتبع في تفكيره الصوفي أبو حامد الغزالي، أنظر: هشام أبو رميلة: علاقات الموحدين بالمماليك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، ط1، دار الفرقان، عمان، الأردن، 1984، ص 70، وأنظر:
Louis Viardot, Histoires des arabes et des mores d'Espagne, T1, pagneve édition, Paris1854,p 256.

9- المريدين: في فترة قصيرة أصبحوا في الظاهر طائفة دينية أو فرقة صوفية وفي الحقيقة آداة سياسية، أنظر: عصام الدين عبد الروؤف الفقي: تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، مصر،(د،ت)، ص 263.

10- لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام تح: إ.ليفي، بروفسنال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2006، ص 248-249.

11- محمد بن يحي الشلطيشي: عرف بابن القابلة اشتهر بالدهاء والشجاعة والبلاغة، أنظر: هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص 71 .

12- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الآبار القضاعي: الحلة السيراء، تح: حسين مؤنس،ج2، ط2، دار المعارف، لبنان، 1985، ص 197- 198.

13- حصن ميرتلة: هو حصن يقع شرقي مدينة باجة بينهما أربعين ميلا، أنظر: الحميري محمد عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975، ص 191.

14- هشام أبو رميلة: المرجع السابق، ص71.

15- سيداري بن الوزير: هو أبو محمد سيداري بن عبد الوهاب بن وزير القيسي، كان يجيد اللغة الإسبانية، وكان له ولد أديب يسمى محمد، ترجم له ابن الآبار، توفي سنة 565ه، أنظر: أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق: أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، راجعه عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط ،2004، ص87.

16- يابرة: مدينة من كورة باجة بالأندلس تنتهي أحواز باجة فيما حواليها مائة ميل وهي تقع في شرق باجة، أنظر: الحميري: المصدر السابق، ص 191.

17- شلب Silvy: مدينة تقع على مقربة من شاطئ المحيط الأطلسي غربي جنوب باجة، وشمال غربي شنتمرية عليها صور حصين، أنظر: الحميري، المصدر السابق، ص106-107.

18- ابن الآبار: الحلة السيراء، ص 198-199.

19- لسان الدين بن الخطيب: المصدر السابق، ص250-251.

20- حصن مرجيق: هي مدينة Monchique حاليا الواقعة جنوبي البرتغال إلا أنه يبدو هناك تباعدا بين الكلمة في أصلها العربي ولفظها البرتغالي مما يجعل هناك شك في أن مرجيق هي نفسها Monchique، أنظر: عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، مصر، 1968، ص 149.

21- باجةBeja : من أقدم مدن الأندلس وأولها اختطاطا تبعد عن قرطبة حوالي 100 فرسخ وهي تقع بين مدينتي شلب ويابرة وهي حاليا من مدن جنوبي البرتغال، تبعد عن لشبونة ب 154 كلم وإليها ينتسب عبد المالك بن صاحب الصلاة، أنظر: الحميري: المصدر السابق، ص36، وأنظر أيضا: ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة

وجعلهم الوارثين، تح: عبد الهادي التازي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987، ص289، وأنظر كذلك: عبد الله علي علام: المرجع السابق، ص149.

22- هشام أبو رميلة: المرجع السابق، ص 73.

23- ولبة: Wuelva هي مدينة صغيرة متحضرة عليها سور تشتهر بالتجارة والأسواق والصناعات وهي مطلة على جزيرة شلطيش التي يحيط بها البحر من كل ناحية ولها من ناحية الغرب اتصال بأحد طرفيها إلى مقربة من البر، وهي حاليا تقع بجنوب البرتغال بالقرب من شاطئ المحيط الأطلسي، أنظر: الإدريسي أبو عبد الله: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس تح: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص260، وأنظر أيضا: عبد الله علي علام: المرجع السابق، ص 150.

24- لبلة: مدينة قديمة تقع في غرب الأندلس تبعد عن طليطلة حوالي 20 مرحلة وعن اشبيلية 40 مرحلة، بينها وبين قرطبة 30 فرسخا، وهي تقع في الشمال الشرقي من ولبة بجنوب البرتغال الحالية، أنظر: الحميري: المصدر السابق، ص 168، وأنظر أيضا: ياقوت الحموي شهاب الدين أبي عبد الله: معجم البلدان، ج1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1979، ص 73، وأنظر كذلك: عبد الله علي علام: المرجع السابق، ص 150.

25- يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر: عبد الله عنان، ج1، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة 1996،ص 116-117.

26- عقيلة غناي: قيام الدولة المرحدية، منشورات جامعة فاريونس ،بنغازي، 1998، ص74.

27- طريانة Triana: حاضرة من حواضر اشبيلية ينسب إليها الفقيه عبد العزيز الطرياني، أنظر: ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص371.

28- قرطبة Cordoba: قاعدة بلاد الأندلس، تمتاز بجامعها المشهور تقع شرقي اشبيلية على بعد 138 كلم، أنظر: الحميري: المصدر السابق، ص 153-158.

29- ابن حمدين: هو أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن حمدين ينتمي إلى بيت عربي عريق تلقى العلم بقرطبة واشتغل بسلك القضاء حتى وصل إلى منصب قاضي قضاة بقرطبة سنة 529ه، وقد اختلف ابن حمدين مع حكام المرابطين فعزل من منصبه سنة 533ه، أنظر: عبد الله علي علام: المرجع السابق، ص 151، وأنظر أيضا: لسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام،ص 252- 253.

30- هشام أبو رميلة: المرجع السابق،ص 74.

31- سيف الدولة بن هود: هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن هود الملقب بسيف الدولة المستنصر بالله، وبنو هود هم ملوك مملكة " سرقسطة "، أنظر: عبد الله علي علام: المرجع السابق،ص 151.

32- ابن الآبار: الحلة السيراء،ج2، ص 205-206.